مجلة المجمع العلمي

مجلة المجمع العلمي

فصلية محكمة أنشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

الجزء الثاني ــ المجلد الواحد والستون

١٤٣٥هـ . ٢٠١٤م

شبكة كتب
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

التورية في عصر بني الاحمر

الدكتورة بان كاظم مكي
الجامعة العراقية / كلية التربية للبنات

الملخص :

يأتي هذا البحث الموسوم بـ (التورية في عصر بني الاحمر) في مجال الدراسات الأدبية التي تُعنى بأدب الأندلسيين .

وتسعى الباحثة من هذه الدراسة إلى استجلاء صورة هذه الظاهرة في بيئتها الأدبية ، وإماطة اللثام عنها ؛ مما يشكّل إضافة علمية جديدة في الدراسات الأدبية ، تستحق البحث .

وللوصول إلى غاية البحث فقد تمّ تقسيمه الى مذهب الصنعة البديعية و مذهب الصنعة البديعية في عصر بني الاحمر و التورية في عصر بني الاحمر وتم تقسيمه الى اولا : التورية بآيات من القران الكريم و ثانيا : عناوين الكتب و ثالثا : التورية ببعض المصطلحات العلمية والادبية و رابعا : التورية بذكر الأعلام من الفقهاء والقراء والأدباء و التورية في الموشحات .

مذهب الصنعة البديعية :

طغى علم البديع على كل المذاهب الفنية المعاصرة ، ومن فنون البديع التورية التي غدت هدف كل شاعر و كثر التأليف عنها و دعاها البلاغيون بأسماء شتى منها (الإيهام) ، و(التوجيه)[1] ، و(التخييل) ، و(المغالطة) ، و(الإشارة)[2].

والتورية اهم مظهر من مظاهر الرمزية ، والقدماء لم يأبهوا بها وبدأ الاهتمام بها في العصر العباسي فكثرت وشاعت بين الشعراء وعقدوا صورها بيد أنهم لم يتخذوها مذهبا خاصا ، اما في القرنين السادس والسابع الهجريين فقد تطورت التورية واصبحت مذهبا شعريا خاصا سماه النقاد الاقدمون

---

[1] التوجيه : هو أن يُؤتى بكلام يحتمل معنيين متضادين على السواء كهجاء ، ومديح ، ودعاء للمخاطب ، أم دعاء عليه ، ليبلغ القائل غرضه بما لا يمسك عليه والتورية تكون في لفظ واحد . والتوجيه يكون في تركيب ، أو جملة أسماء متلائمة ، والتورية يقصد المتكلم بها معنى واحدا ، هو البعيد . والنوع الأول من التوجيه لا يترجح فيه أحد المعنيين على الآخر. ولفظ التورية : له معنيان بأصل الوضع ، ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي ، تح : عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال – بيروت ، دار البحار، ٢٠٠٤م ، ج١ / ص٣٠٤.

[2] ينظر : البديع في نقد الشعر ، اسامة بن منقذ ، تح : الدكتور أحمد أحمد بدوي ، مطبعة الحلبي للنشر والتوزيع ، القاهرة ،١٩٦٠، ص١٨٨ ، ودراسات فنية في الادب العربي ، عبد الكريم اليافي ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان – بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦ ، ص١٧٣، ١٧٤ .

مذهب السحر الحلال الذي يجب أن يتحلى به كل شاعر و ناثر وإلا عد مقصرا عن أقرانه في حلبة هذا الفن البديعي[٣].

ويمكننا أن نتبين في هذا المذهب اتجاهين : ظهر اولهما في مصر على يد القاضي الفاضل (ت٥٩٦) في القرن السادس ، و ظهر ثانيهما في بلاد الشام على يد شرف الأنصاري (ت ٦٦٢) في القرن السابع ، وقد تتابع هذان الاتجاهان في مصر و الشام في القرن الثامن ليقوم عليهما مذهب عربي واحد . وهكذا اصبحت التورية غرضا في ذاتها يعمل الشاعر من أجله شعوره و فكره ، إذ تعتمد على الجهد العقلي ، لكنها تبرز و قد اكتست ثوبها الرمزي الجميل الذي طبعها بطابع الانسجام و السهولة وهذه الصفة ميزت بين الاتجاه الشامي و الاتجاه المصري الذي طبع بطابع التكلف و التصنع في هذا الفن ، حتى إذا قامت الوحدة السياسية رأينا وحدة فكرية ناضجة في القرن الثامن الهجري على يد ابن نباتة المصري[٤].

مذهب الصنعة البديعية في عصر بني الاحمر :

عاش الاندلسيون في بيئة مترفة لاهيه وحضارة مزدهرة دفعت الشعراء الاندلسيين الى تجويد اشعارهم والعناية بها وتزيينها بأنواع الصنعة البديعية لتتناسب مع روح العصر السائدة آنذاك ، وكان للتأثيرات المشرقية دور كبير في توجيه شعراء الاندلس نحو الصنعة والتكلف في بعض اشعارهم ، ولفت انظارهم الى المحسنات البديعية التى سبق أن ظهرت في المشرق وتوسع

---

[٣] ينظر : الادب في بلاد الشام ، عمر موسى باشا ، المكتبة العباسية ، دمشق ، ٢٠٠٨ ، ج١ /٤٦٠_٤٦١.

[٤] ينظر : الادب في بلاد الشام ، ج١ /٤٦٠-٤٦١ .

فيها المشارقة فشغلت فنونهم المختلفة الجزء الاكبر من نتاجهم الشعري خاصة والادبي عامة ولكن الاندلسيين لم يسرفوا في استعمالها اسراف المشرقيين[٥].

ازدهر علم البديع في الاندلس في القرن الخامس الهجري ازدهارا ملحوظا ، حاول شعراء هذا العصر مجاراة نظرائهم في المشرق من شعراء العصر المملوكي الذين اسرفوا في البديع اسرافا بالغا ، ولكن شعراء الاندلس في القرن الخامس لم يسرفوا اسراف المشرقيين فضلا عن تعبيرهم باستعمال البديع عن اذواقهم وميلهم الى التأنق والزينة ، كما الفوا العديد من الكتب في البديع منها كتاب (تسهيل السبيل الى تعلم الترسيل) لأبي عبد الله الحميدي ، وكتاب (احكام صنعة الكلام) للكلاعي ، وكتاب (المرقصات والمطربات) لابن سعيد ، وغيرها من الكتب التي تناولت تجويد الشعر والعناية به[٦].

اما في عصر غرناطة فقد شاع البديع شيوعا كبيرا ولقي اقبالا ملحوظا في التأليف والدراسة من نقاد الشعر والبلاغيين في الاندلس في عصر بني الاحمر، ولعل الحياة الاجتماعية من اسباب شيوع هذه الظاهرة في عصر غرناطة ، فقد كان الناس متأثرين بمظاهر عصرهم التي تتجه نحو الترف والزخرف المبالغ فيه كما ساعدت الحياة الثقافية على الميل نحو هذه الظاهرة

---

[٥] ينظر : اتجاهات نقد الشعر في الاندلس ، مقداد رحيم ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٧٣ ، ط١ ، ص٢٢٤.

[٦] تاريخ النقد الادبي عند العرب ، احسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٧٨، ص١٢٠.

فقد بدأت غرناطة حياتها الادبية في عصر اشتد فيه إقبال الناس على البديع وتجويد الشعر فاظهر شعراؤها عناية فائقة به في الاساليب التعبيرية[٧].

ويبدو أن اهتمام الشعراء في عصر غرناطة بمذهب الصنعة راجع الى عوامل عدة ، منها اعتبار التفنن بأصناف البديع المختلفة نوعا من انواع الابتكار والتجديد ، وان مقدار جمال الشعر لا يقاس الا بمقدار ما فيه من تحسين معنوي ولفظي ، فضلا عن كون الشعراء يجيدون الكتابة النثرية ايضا ، اذ اجادوا كتابة الرسائل على وفق اساليب العصر القائمة على السجع والتقسيم والترصيع والجناس والطباق[٨].

وجود بعض المؤلفات التي يحض اصحابها على تمثل الصنعة اللفظية على الرغم من ((اننا نفتقر في هذا العصر الى شخصية متخصصة عنيت بالنقد مبحثا قائما))[٩] ، ومن هذه المؤلفات : كتاب (الوافي في النظم والقوافي) لابي البقاء الرندي وقد جعله في اربعة اجزاء افرد الجزء الثاني للحديث عن محاسن الشعر وبديعه ومعانيه ، اذ جعله في اربعين بابا ذكر فيها المؤلف طائفة من الفنون البديعية والبلاغية ، وكتاب (التسهيل لعلوم التنزيل) الذي الفة محمد بن احمد بن جزي الكلبي واقاض الحديث فيه

---

[٧] ينظر : اتجاهات نقد الشعر في الاندلس ، ص٢٢٤.

[٨] البديع في نقد الشعر ، ص١٨٨.

[٩] نثير فرائد الجمان ، اسماعيل بن الاحمر . المقدمة ، تح : محمد رضوان الداية ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت . لبنان ، ١٩٦٧ ، ص١٩٣ .

عن علم البديع وصناعته ، اذ يعتبر هذان الكتابان وغيرهما معينا لا ينضب لمن اراد السير على مذهب الصنعة بمحسناتها البديعية المختلفة[١٠].

ونظام البديعيات ونشاطه على يد بعض الشعراء الاندلسيين والمشارقة يمثل مذهب الصنعة والتكلف خير تمثيل ، فالبديعيات قصائد طوال تقال في مدح الرسول(ﷺ) وتنظم على البحر البسيط ويتضمن كل بيت من ابياتها فنا من فنون البديع التي اطلق عليها المحسنات البديعية في عرف اهل البلاغة التي تضم الوجوه اللفظية والمعنوية لتحسين الكلام كالجناس والموازنة والطباق والتورية[١١] ، اذ شهدت هذه الفنون عناية وابداعا على يد النقاد والادباء ولعل من اشهر القصائد التي عنيت بالبديع في عصر غرناطة بديعية ابن جابر الهواري الضرير المعروفة بـ (بديعية العميان) ويرى الدكتور زكي مبارك ان ابن جابر كان اول من ابتكر هذا الفن الجديد[١٢].

استعمل شعراء الاندلس في عصر سيادة غرناطة الصنعة في بعض اشعارهم مما جعلهم يتجهون اتجاها خاطئا في فهم الشعر وادراك مهمة الشاعر، ذلك ان مذهب الصنعة كثيرا ما يؤدي الى انعدام الاحساس بالتجربة الشعرية ، فلم يكن اهتمامهم منصبا على الاغراض الجادة ذات المضامين العميقة التي كان يأتي البديع فيها عفو الخاطر ، من خلال استعمالهم للبديع بلا تكلف وانما تكلفوا البديع في الاغراض الفكاهية ، لقد

---

[١٠] ينظر : تاريخ النقد الادبي في الاندلس ، محمد رضوان الداية ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ،١٩٩٣، ص ٥٤٩ – ص ٥٥٠ .

[١١] ينظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٨٨.

[١٢] المدائح النبوية ، زكي مبارك ، مطبعة بابي الحلبي ، مصر ، د. ت ، ص١٦٩.

شغف الغرناطيون بمختلف اساليب التحسين المعنوي واللفظي ، واهم ما كان في التورية والجناس والطباق والتضمين والاقتباس واستحضار الفاظ العلوم ومصطلحاتها لخدمة معانيهم بحيث خصت هذه المحسنات بالدراسة وجمع الشواهد من قبل معظم اعلام هذا العصر وقد عدوا التورية من اعلى فنون البديع وتنافسوا في الاتيان بكل بديع منها ، وعبروا بها عما يختلج في نفوسهم من شوق وحنين وحزن والم وساعدهم على ذلك طبيعة بلادهم الخلابة [١٣].

التورية في عصر بني الاحمر :

التورية لغة : مصدر ورَّيت الخبر تورية : إذا سترته ، وأظهرت غيره[١٤].

وتعني في الاصطلاح : أن يطلق لفظ له معنيان قريب غير مراد وبعيد هو المراد ، ويدل عليه بقرينة يغلب أن تكون خفية فيتوهم السامع أنه يريد المعنى القريب ، وهو يريد المعنى البعيد[١٥] ، مثال قول الله تعالى : ((**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ**))[١٦] ، أراد بقوله

---

[١٣] اتجاهات نقد الشعر في الاندلس ، ص٢٢٤.

[١٤] ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٤١٤هـ ، ج١٥ / ص ٣٨٩.

[١٥] ينظر : البديع في نقد الشعر ، ص٦٠ ، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها الدكتور احمد مطلوب ،مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ، ٢٠٠٧ ، ص٤٣٣ ، ٤٣٤ . والادب في بلاد الشام ، ج١ /٦٥٥-٦٧٦ . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه ، كامل المهندس ،مكتبة لبنان ، ص ٧١ .

[١٦] سورة الانعام ، الآية ٦٠ .

(جرحتم) معناه البعيد وهو ارتكاب الذنوب ، ولأجل هذا سميت التورية ، والتورية لون من الوان علم البديع ، وقد اعتنى الأندلسيون بهذا النوع من البديع في عهد بني الأحمر لأهميتها اذ يتداولونها حفظا ويطرقونها ابداعا ونتاجا وتأليفا [١٧].

وقد حرص المتأخرون على تحصيل التورية ، وتدنت ابنيتها عند بعضهم ، قال : ((وقد رأيت كثيرا من المتأخرين كثرت رغبتهم في التورية ، واشتد حرصهم على تحصيلها حتى أتوا بها واهية الأبنية ، واستعملوا فيها الألفاظ المبتذلة))[١٨] ، ثم وضعوا شروطا للتورية : ((وإنما ينبغي أن تكون بالألفاظ المصونة والمنزلة منزلة الجواهر المكنونة))[١٩] ، وهذا دليل العناية بها في ذلك العصر ، وعلى الرغم من شهرتها ووضوحها وتميزها عن سائر الأنواع البديعية لم يذكرها إسماعيل بن الأحمر ضمن كتابه (نثير الجمان)[٢٠] ، ولكنه اورد لها أمثلة تفوق أمثلة بقية المحسنات[٢١].

---

[١٧] ينظر: الحركة الشعرية زمن المماليك ، محمد مصطفى هدارة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،١٩٨٦، ص٢٦٩. وخزانة الأدب وغاية الأرب ، ج٢/٢٤٣.

[١٨] طراز الحلة وشفاء الغلة في شرح الحله السيراء في مدح خير الورى ، ابو جعفر الرعيني ، تح : الدكتور رجاء السيد الجوهري ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٤٧٥ .

[١٩] طراز الحلة وشفاء الغلة ، ص ٤٧٥ .

[٢٠] ينظر: نثير الجمان ، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر الغرناطي الأندلسي ، تح : الدكتور محمد رضوان الداية ، الناشر : مؤسسة الرسالة ، ط٢، ١٩٨٧، ص ٥٤ - ٥٥ .

[٢١] المصدر نفسه ، ص ٣٠٠-٣٠٣ .

كما اهتم بها لسان الدين بن الخطيب وأتى لها بالأمثلة ، واعتبرها عمدةً في باب (السحر) لما تحركه من قوة التعجب[٢٢] ، ويورد ابن عزيم في مختاراته أمثلة يرى أنها جديرة بالانتقاء بين ما اختاره من المقطوعات التي ((تُسفر عن بيانها المُغرب ، وتأتي من أنواع البديع بكل مرقص ومطرب)) [٢٣].

كما افرد بعض الشعراء للتورية مجموعات شعرية خاصة منهم ابن خاتمة في مجموعته الشعرية (رائق التحلية في فائق التورية) [٢٤] ، وهو عبارة كما ذكر المقري عن مجموعة أبيات شعرية تتعلق بالتورية من نظم أبي جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري ، وهو صاحب كتاب (مزية المرية) واختيار أحد تلامذته المعجبين به . وهو الوزير أبو

---

[٢٢] ينظر : السحر والشعر ، لابن الخطيب ، تح : الدكتور خالد الجبر و الدكتور عاطف كنعان ، دار جرير للنشر ، عمان ، ص٢٥.

[٢٣] مختارات علي بن عزيم الغرناطي ، تح : وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٩٣ م ، ص٢٤ ، وأمثلتها من صفحة ٢٦ وما بعدها .

[٢٤] ينظر : نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، المقري التلمساني ، تح : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت – لبنان ، ج٨/ ص ١١٤، وينظر : الإحاطة في اخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤٢٤ هـ ، ج ١/ ص ١١٤، وينظر : الكتيبة الكامنة ، ابن الخطيب ، تح : إحسان عباس . دار الثقافة بيروت ،١٩٨٣ ،ص ٢٣٥، وينظر : ليل الابتهاج بتطريز الديباج ، لأحمد بابا التنبكتي ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ص ٥١.

جعفر أحمد بن زرقالة[٢٥] ، وتمتاز هذه الاختيارات أو المنتخبات بذكر بعض بواعثها ، مما يكون نظرة تاريخية تتعلق بحياة بعض الأدباء الأندلسيين الذين اشتهروا في القرن الثامن الهجري بحسن أساليبهم وجمال تعابيرهم ، وقوة بيانهم ، وسعة معرفتهم ، ونذكر منهم على سبيل المثال، لسان الدين بن الخطيب ، وأبا البركات ابن الحاج البلفيقي ، وأبا عبد الله بن جزي ، وأبا القاسم بن رضوان ، والشريف الغرناطي المعروف بأبي القاسم السبتي ، وغيرهم من الأدباء ، الذين كانت لهم علاقات طيبة بابن خاتمة ، فدون أسماءهم، وسجل بعض أخبارهم ، وجعلهم ضمن إنتاجه الأدبي ، الذي اختار منه جامع هذا الكتاب نبذة تتعلق بأسلوب التورية، وما يتناسب معها ويظهر من مقدمته ان جامع هذه المنتخبات كان معجبا بشعر ابن خاتمة، فهو يعتبره نموذجا مثاليا لجمال الأداء ، وصورة حية لموهبة خلاقة حافظت على سنن العرب الأقدمين، وورثت عنهم ما يحلو من الأنغام ، وما يعذب من المعاني[٢٦].

وبعد ذكر هذه المقدمة شرع في ذكر الأبيات التي اختارها ، وهي متعددة الإحالات ، لا تقتصر على التورية التي ذكر وإنما تتعداها إلى غيرها

---

[٢٥] ابن زُرْقالَة (٦٨٣ - ٦٠١) أحمد بن محمد بن علي بن أحمد ابن أحمد بن علي ، أبو جعفر وأبو العباس ، القيسي المعروف بابن زرقالة : أديب ، له شعر. من أهل المريّة بالأندلس ، مولدا ووفاة ناب عن قاضيها ، وكان حسن الخط المشرقي . جمع ما أنشده أحمد بن علي ابن خاتمة من نظمه في التورية ، وسماه (رائق التحلية في فائق التورية) ، ينظر : فوات الوفيات ، محمد بن شاكر الكتبي ، تح : إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ، ط١، ١٩٧٣ ، ج١/ ص٧٢.

[٢٦] ينظر : تاريخ النقد الادبي في الاندلس ، ص٢٦٩.

من ألوان البديع كالجناس ، والتخيير والتضمين ، والاقتباس ، إلا أن اللون الغالب عليها هو المتعلق بالتورية التي استعمل فيها كثيرا من المصطلحات العلمية ، واستغل فيها كثيرا من أسماء بعض الكتب ، أو بعض أسماء أعلام مشهورين في الفقه ، والأدب ، واللغة ، والتفسير ، والقراءات ، وغيرها ، ومع ذلك فإن التورية إذا تجاوزت حد البداهة صارت تكلفا ، ولم تبق لها تلك الجمالية التي تحيط بها ، ولعل الشعراء المبدعين كانوا يعرفون ذلك ، فلم يستعملوها إلا إذا اهتزت نفوسهم لمحاسنها، وطاوعتهم أقلامهم لرسم بدائعها ودقائقها ، ونحن إذا وازنا بين الشعر الذي استعمل فيه ابن خاتمة التورية وبين شعره المطلق فإننا سنرى أن شعره المطلق كان أكثر تأثيرا ، وأقوى مفعولا في نفوس سامعيه ، وعلى كل حال فإن ابن خاتمة كان من أشعر أدباء الأندلس في القرن الثامن الهجري شعرا ونثرا، أعجب به جل الذين ترجموا لحياته وادبه [٢٧].

ومن الادباء الذين تميزوا على مستوى الإبداع الشعري ، ابن جابر الهواري ، الذي خصص قصيدةً مطولة للتورية بأسماء السور القرآنية وهي في مدح الرسول(ﷺ) ، وسماها : ((الحلة السِيَرا في مدح خير الورى)) التي عرفت فيما بعد ببديعية العميان ، لأنه كان أعمى ، قال عنها المقري بأنها من غرر القصائد ، وان جماعة عارضوها فمت شقوا غبارها[٢٨]، وقال عنه الرعيني انه ((طرز بالتورية برودها ، وحسن في ذلك صدورها

---

[٢٧] ينظر : نفح الطيب ، ج ٦ / ص ٧٩.

[٢٨] ينظر : المصدر نفسه ، ج٧ / ص ٣٢٣ - ٣٢٦ وبعدها أورد المقري بعض معارضاتها .

وورودها ، ورى فيها بسور القرآن كلها على الترتيب ، فجاء بالحسن النادر ، والمعنى الغريب))[٢٩] ، و أبو جعفر الرعيني صديق ابن جابر الهواري وهو شارح بديعيته بكتاب اسمه ((طراز الحلة وشفاء الغلة)) [٣٠]. وأول البديعية :

بِطَيْبَةَ انزِل وَيَمِّم سَيِّدَ الأُمَمِ وَانشُر لَهُ المَدحَ وَانثُر أَطيَبَ الكَلِمِ [٣١]

وقد وصل إليها ابن جابر بتطويره للمدحة النبوية ، وبتأثره ببردة البوصيري الشهيرة من جهة ، وبالنظم العلمي الذي برع فيه من جهة ثانية ، وابتكر بها فنا كبيرا من فنون الأدب العربي فكان رائدا له ، وهو فن البديعيات ، وهي قصائد ميمية من البحر البسيط في المديح النبوي يحتوي كل بيت منها نوعا من أنواع البديع ، ولكنه يحتاج إلى شرح واف حتى يفهم[٣٢]. ومن الباحثين من جعل مبتكرها صفي الدين الحلي ، وهو معاصر له، ولقد رجحت سبق ابن جابر لأنهما متعاصران، ولأن شارحها أبا جعفر قد صرح بسبقها، وهو معاصر لابن جابر وللحلي معا . ولأن بديعية الحلي تفوّقت على بديعية ابن جابر ، الأمر الذي يشير إلى أنه قد أفاد من قصيدة ابن جابر وتلافى ما رآه فيها من مواضع ضعف . ومهما يكن من أمر فإن

---

[٢٩] طراز الحلة وشفاء الغلة ، ص ٤٧٥ ، ص ٤٥٠ ، ص٤٨٠ .

[٣٠] ينظر : المدائح النبوية ، ص ٢١٣.

[٣١] شعر ابن جابر الاندلسي ، الدكتور احمد فوزي الهيب ، دار سعد الدين للطباعة والنشر ، دمشق ، ط١ ،٢٠٠٧، ص١٣٤.

[٣٢] ينظر : المدائح النبوية ، ص ٢١٣.

ابن جابر في صنيعه هذا قد غدا مَعْلما من معالم الأدب والبلاغة في تاريخ اللغة العربية ، ولقد أثنى عليها السيوطي ووصفها بعلو نظمها[٣٣].

وعلى الرغم من أن جل اهتمام ابن جابر قد انصب على الجانب البلاغي فيها ، إلا أنه سار في معانيها سيره من معاني غيرها من مدائحه النبوية تقريبا ، لذلك لا نجد في معانيها جدة أو جهدا يوازي الجهد المبذول في الجانب البلاغي منها . إنه بدأها بذكر طيبة والدعوة لزيارة الرسول (ﷺ)، وضمّنها تغزلا نبويا ، ثم مدح الرسول ، وتحدث عن بعض معجزاته وختمها بالاعتذار منه ، لأنه لم يستطع أن يوفيها حقه في المديح مهما أطال[٣٤].

ويمكن تتبع استعمالات التورية في مجالات مختلفة يتجلى بعضها فيما يأتي :

اولا : التورية بآيات من القران الكريم :

كان الفن يغالب الصنعة في المدائح النبوية، في حين غلبته الصنعة في هذه البديعية ، واتضح ذلك وقوي فيما جاء بعدها من بديعيات ، لا نستطيع أن نجد فيها للفن إلا رسوما دارسة وظلالا باهتة ، اذ عمد فيها ابن جابر الهواري إلى التورية بسور القران الكريم بأسلوب يميل إلى التكلف والتصنع ، يقول :

---

[٣٣] ينظر : البلاغة تطور وتاريخ ، شوقي ضيف ، ط٦ و دار المعارف ، القاهرة ، ص ٣٦١ .

[٣٤] ينظر : الحركة الشعرية زمن المماليك ، محمد مصطفى هدارة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦، ص١٢٢ وما بعدها .

في كلّ فاتحـة للقـول معتبـره حق الثناء علـى المبعوث بالبقـره
في آل عمران قدما شـاع مبعثه رجالهم والنسـاء استوضحوا خبـره
بكهف رحماه قد لاذ الورى ، وبه بشرى ابن مريم في الإنجيل مشتهره
سماه طه ، وخصّ الأنبياء على حجّ المكان الذي من أجله عمره[٣٥]

استعمل ابن جابر التورية بسور القران الكريم منها سورة (الفاتحة ، والبقرة ، وال عمران ، والنساء ، والكهف ، وطه ، والأنبياء ، والحج) ، فبدا من خلال هذه التورية متكلفا .

ومن التوريات في عصر بني الاحمر تورية عند ابن خاتمة ، يقول :

قالوا الم تر كيف صورته فاذا به في صورة الشمس[٣٦]

التورية هنا سورة من سور القران الكريم (سورة الشمس) وهذه تقرا بالسين ، والمورى عنه (صورة) بالصاد فقد أراد الشاعر بهذه التورية ابنه الذي خلفه وراءه في وطنه ، فأراد أن يعبر عن ألمه وما يداخله نتيجة لفراقه .

ومن تورية عند ابن خاتمه ايضا قوله :

سألتُهُ يا حَبيبي ما بِلَوْحِكَ قُلْ فَقال لي إنَّني في سُورَةِ القَمَرِ[٣٧]

التورية هنا باسم سورة (سورة القمر) وهي ظاهرة أيضا وهي تورية للدلالة على الجمال المعنى القريب هي سورة من سور القران الكريم والمعنى البعيد هو للدلاله على الجمال .

---

[٣٥] نفح الطيب ، ج ٧ / ص ٣٢٤.

[٣٦] نفح الطيب ، ج ٧ / ص٣٣ .

[٣٧] المصدر نفسه ، ج ٧ / ص ٣٣.

ومن التوريات بقصص القران الكريم يقول ابن فركون :

إذا فاض نيلُ الجودِ من كفّ يوسُفٍ كفَى نيْلُهُ العافين أن يهْبِطوا مصْرا[٣٨]

وهنا تورية بسورة القران الكريم ((فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ))[٣٩] ، للدلالة عن الكرم والجود لدى الممدوح .

ثانيا : عناوين الكتب :

دفع الاهتمام العلمي المثقفين إلى تتبع ما أنتجه السابقون ، وإلى التأمل فيما كتبوه ، والاستفادة مما ألفوه ، ودفعتهم الضرورة العلمية إلى قراءة الكتب المشهورة ومطالعتها والاستفادة منها ، وإلى ذكرها كلما احتاجوا إلى ذلك ، وبمقدار ما كان المثقف يستدل بالمصادر المتداولة ، وكانت قيمته ، تزداد رسوخا عند ذوي العلم وأهل الأدب، بل ان المثقف كان أحيانا يذكر أسماء تلك الكتب إيهاما للسامع بأنها مقصودة، في حين نجده يقصد بذكرها معنى آخر يدل عليه سياق الكلام ، ومن ذلك مثلا ما نجده في هذه المنتخبات من أشعار استعمل فيها ابن خاتمة بعض هذه الأسماء من دون أن تكون مقصودة بالذات ، فهو القائل :

ومُعَطَّرِ الأنفاس يَبسِمُ دائِما عن دُرِّ ثَغرٍ زانَـــهُ ترتيبُ

مَنْ لم يشاهِدْ منهُ عِقْد جواهرٍ لم يَدْرِ ما التَّنقيحُ والتهذيبُ [٤٠]

---

[٣٨] ديوان ابن فركون ، تح : محمد بن شريفة ، ط١، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧. ص١٠٦.

[٣٩] سورة يوسف ، الآية ٩٩.

[٤٠] نفح الطيب ، ج ٥/ ص ٥٣٧ .

فالمراد بذكر التنقيح والتهذيب نظافة الأسنان ، وبياضها ، وحسن ترتيبها ، وجمال منظرها ، وجلب الأنظار إليها ، فهي تجمع بين طيب الرائحة وحسن التنضيد ، لكن المتبادر عند سماع التنقيح والتهذيب إنما هو كتاب (التنقيح) وهو (تنقيح الفصول في اختصار المحصول) للقرافي ، وأما كتاب (التهذيب) فالمراد به (تهذيب مسائل المدونة) للإمام خلف بن أبي القاسم البرادعي القيرواني ، ويعتبر هذا الكتاب من أشهر الكتب التي ألفها البرادعي ، فهذان الكتابان تدل عليهما الكلمتان دلالة قريبة ، ولكنها غير مقصودة ، ودلالة بعيدة ، وهي المتعلقة بجمال الأسنان ، وهي المرادة هنا.

وقد كان الشعراء والكتاب يتبارون في التورية بالكتب ، ويبرزون من خلال ذلك قدرتهم وكفاءتهم ، ومدى اطلاعهم على ما أنتجته الأقلام في شتى مجالات المعرفة . ونظرة عابرة في الإنتاج الأدبي العربي كافية في التحقيق من ذلك.

ومن الذين برعوا في هذا اللون لسان الدين بن الخطيب ومن ذلك قوله :

وَلَمَّا رَأَتْ عَزْمِي حَثِيثًا عَلَى السُّرَى وَقَدْ رَابَهَا صَبْرِي عَلَى مَوْقِفِ الْبَيْنِ
أَتَتْ بِصِحَاحِ الْجَوْهَرِيِّ دُمُوعُهَا فَعَارَضْتُ مِنْ دَمْعِي بِمُخْتَصَرِ الْعَيْنِ[٤١]

فالبيتان في معرض الغزل اذ البكاء على فراق المحبوبة وبكاؤها أيضا ، والتورية هنا في صحاح الجوهري ، فالمعنى القريب تتلألأ كالجواهر ، والمعنى البعيد المقصود هو مختار الصحاح للجوهري ، وفي

---

[٤١] الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج٤/ ص٤٢٥.

ذات البيت توريـة أخـرى فـي كلمـة مختصـر العـين) ، والمعنـى القريـب (دموعـه) ، ويقصـد كتـاب (مختصـر العـين) يقـول لسـان الـدين بـن الخطيب :

تَبْتُ بِدَمْعِ عيني صَفْحَ خَدِّي وَقَدْ مَنَعَ الْكَرَى هَجْرُ الْخَلِيلِ

وَرَابَ الْحَاضِرِينَ فَقُلْتُ هَـذَا كِتَابُ الْعَيْنِ يُنْسَبُ لِلْخَلِيلِ [٤٢]

فالشاعر هنا يوري عن معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وهـو أول معجـم عربـي ، وإن كـان البيتـان فـي ظاهرهمـا الغـزل ، فـالمعنى القريب لكلمة (الخليل) هو الحبيب ، و (العين) عين الشاعر نفسه التي يفيض منها الدمع بعد هجر المحبوب لها . وأما البعيد المقصود فهو معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي.

ويقول ابن فركون مستعمل التورية بكتاب (العين) يقول :

وما ضُمِّنَتْ إلا أحاديثَ خلّةٍ أُتيحَ لها منْ صاحِبِ العَيْنِ شارِحُ[٤٣]

وقال لسان الدين بن الخطيب كذلك في التورية بأسماء كتب فقهية :

لك الله من خل حباني برقعة حبتني من آياته بالنوادر

رسالة رمز في الجمال نهاية ذخيرة نظم أتحفت بالجواهر[٤٤]

حيث يبدأ متعجبا من خلال أسلوب التعجب (لك الله) ، والتعجب هنا ليس تحسرا ، وإنما إعجابا وتقديرا من الشاعر لهذا الصديق الذي وصفه بالخِلّ الذي أعطاه كتابا تميز بكثرة الأخبار والنوادر والعقلانية وهو كتاب له

---

[٤٢] المصدر نفسه ، ج٤/ ص٤٢٥.

[٤٣] ديوان ابن فركون ، ص١١٠.

[٤٤] الاحاطة في اخبار غرناطة، ج٣/ص٣٠٤.

أهمية عظيمة ، فهو احتوى وانتظم بين صفحاته الجواهر واللآلئ ، والتورية في هذين البيتين في كلمة (ذخيرة) ، والمعنى القريب الشيء الزاخر الممتلئ ، والمعنى البعيد كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام الشنتريني.

ثالثا : التورية ببعض المصطلحات العلمية والادبية :

التورية في العلوم عند شعراء الأندلس يشير إلى أمرين غاية في الأهمية ، ولابد من الوقوف عليهما الاول سعة ثقافة شعراء الأندلس وأخذهم بالعلوم فمعظمهم ليس شاعرا فحسب ، وإنما جلهم يجمعون بين الشعر والعلوم ، ويظهر ذلك من خلال استقرائنا نتاجهم الشعري ، اذ نجدهم يضمنون أشعارهم إشارات وحقائق علمية في شتى فروع العلم والمعرفة ، اما الاخر : فيتعلق بالمتلقين لهذا الشعر من أهل الأندلس، فكون الشاعر يُضمّن شعره إشارات وحقائق علمية ، لابد أن يكون المتلقي على درجة من الثقافة والفهم للعلوم ، مما يجعله يفطن إلى ما يقوله الشاعر ويفهمه ويتجاوب معه ، فمعظم المجتمع كان على درجة عالية من الثقافة والعلم . لذا لم يكن غريبا أن نجد الكثير من علماء الأندلس في شتى فروع العلم والمعرفة ، ولا شك في أن هؤلاء العلماء كان لهم الدور الأكبر في نشر العلوم بين أهل الأندلس ، وبالتالي تكونت الروح الثقافية والعلمية الأندلسية التي سادت أهل الأندلس جميعا، ومن أكثر العلوم التي لجأ شعراء الأندلس إلى التورية به علم النحو فهذا لسان الدين بن الخطيب يقول :

لقد كنت موصولا فأبدل وصلكم بهجر وما مثلي على الهجر يصبر

فما بالكم غيرتم حال عبدكم وعهدي بالمحبوب ليس يغير[٤٥]

فالشاعر هنا يتناول بعض قواعد النحو موريا عنها مثل الاسم الموصول والبدل والحال ، فالمعنى القريب أنه موصول بالحبيب ثابت على حبه وحاله كان في رضى وقناعة بهذا الوصال الذي لم يبدّل . أما المعنى البعيد فهو أبواب النحو الموصول والحال والبدل.

ومن بديع التورية ماوردت في معرض الحكمة بعلم النحو للشاعر ابن جُبير الكناني الاندلسي :

أخلاءُ هذا الزمان الخؤونِ توالت عليهم حروف العلل

قضيت التّعجبَ من أمرهم فصرتُ أطالِعُ بابَ البدَل[٤٦]

فهو يقرر أن أصحاب هذا الزمان الخائن الغادر قد توالت عليهم العلل والبلايا ، وتعجب الشاعر من فعلهم ، فصار يبحث عن بديل لأخلاء زمانه الغادر . ونلحظ هنا عدم الاقتعال في التورية وعدم التكلف أو الصنعة ، فقد جاءت طبيعية تتلاءم تماما ، وتتوافق مع المعنى الذي يقصده الشاعر ، ولم نلحظ بينها كلمة قلقة في موضعها أو مجلوبة للقافية . والتورية في البيتين في الكلمات (حروف العلل، والتعجب ، والبدل) ، فالمعاني القريبة هي البلايا والخطوب ، والدهشة والاستغراب من موقف الأخلاء ، والبدل هو البحث عن بديل لهؤلاء الأخلاء . أما المعنى البعيد المقصود ، فهي أبواب النحو المعروف (أحرف العلة ، أسلوب التعجب . باب البدل) .

---

[٤٥] الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج٣/ ص٣٠٣.

[٤٦] نفح الطيب ، ج٢/ ص٣٨٤

ومن أنواع التورية بالعلوم استعماله بعض مصطلحات علم النحو ، يقول ابن فركون :

وأرسَلْتَ فوقَ البحرِ أجفانَكَ التي بها حَركاتُ الرّفعِ تُبْنى على الفَتْحِ[٤٧]

الشاعر من خلال التورية يبين حركة السفن بالبحر مثل حركات الاعراب وهي ما تبنى على الرفع بالفتحة للدلالة والتورية على الرفعة والانتصار للممدوح وهي التورية البعيدة التي ارادها الشاعر.

وعلامة النصب ، يقول عبد الكريم البسطي :

ولقد جَزَمْتُ محبّةً بحُصولها ما النَّصْبُ عنها كونُه لا يدفعُ[٤٨]

وهنا الشاعر البسطي اراد ان يبين حالة مع محبوبة الذي يتمنع عليه بحركة الجزم وهو المعنى القريب والمراد به البعيد.

ويربط الشاعر بين علامات الاعراب ومصطلحات أخرى ، يقول ابن فركون :

لقد أعرَبوا اسْمَ المَكْرُماتِ وبدّلوا فلا فاعِلٌ يُجْزَى ولا فِعْلَ يُجْزَمُ[٤٩]

تورية المعنى القريب الحبيب الذي هجره وقطع وصاله ، ومعناها البعيد وهو المطلوب .

ومن التوريات في العلوم استعمل الشاعر لفظة(الاعجام) ، يقول يوسف الثالث :

---

[٤٧] ديوان ابن فركون ، ص١٨١.

[٤٨] ديوان عبد الكريم البسطي القيسي، تح : جمعة شيخة٠عبد الهادي الطرابلسي ، المؤسسة الوطنية للترجمة ، بيت الحكمة ، تونس ، ١٩٨٨م ، ص٤٧١.

[٤٩] ديوان ابن فركون ، ص٣٢٦.

لقد صحبتها عادة الفتك في العدا كما صَحبَ الإعجامُ لفظة حرف الظا[٥٠]

ان الروح الثقافية والعلمية الأندلسية التي سادت أهل الأندلس جميعا جعلت التورية في العلوم ومنها العروض ما استخدمه ابن جزي الكلبي موريا ، يقول :

لقد قطعت قلبي يا خليلي بهجر طال منك علي العليل
ولكن ما عجيب منك هذا إذ التقطيع من شان الخليل[٥١]

فالشاعر يوري بعلم العروض في معرض الغزل اذ يعاتب المحبوب أن قطّع قلبه بالهجر والفراق ، فالتورية في كلمتي (التقطيع والخليل) ، فالمعنى القريب تمزيق قلبه نتيجة فراق المحبوب الذي هو الخليل ، والقرينة (قطعت قلبي يا خليلي بهجر) ، أما المعنى البعيد المقصود فهو تقطيع الأبيات حسب تفاعيل البحور وأوزانها ، وهو علم العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي .

أن القوافي مصطلح من مصطلحات علم العروض ، فقد شغف بها الأندلسيون ، من دون تكلف ولا تعقيد . فمن ذلك مثلا ، ما ورى يوسف الثالث ، به من مصطلحات علم العروض وهو قوله : يقول يوسف الثالث :

تِسع القوافي في يد قد أوحثت هب أنها نغم الغريض ومعبد

.....

---

[٥٠] ديوان ملك غرناطة ، يوسف الثالث ، تح : عبدالله كنون ، ط٢ ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص٨٩ .

[٥١] الكتيبة الكامنة ، ص٩٦

لكن موازَنَةُ الطـويل بكامـــل لا عُذْرَ فيه لناظـم أو منشـد
أما القصيدة فهي رائعة الحلـى حَسناء محرزةٌ لأشرف مقصـد
أما النثار فتحفة تهـدى إلـــى من يشتكي ظمأ عُذوبةَ مـورد
نسخته بل مسخته يمنى ناسخ فقضى على سعد بما لم يُسعد [٥٢]

الإشارة إلى بحر(الطويل ، والكامل) ، وانه لاعذر لشاعر أو منشد إلا ان يقول عليهما لأنهما أكثر البحور شيوعا ، فهو هنا ورى بأسماء الأبحر، وأخضعها لحالات ذاتية لا يحسن بها إلا ذوو الهوى ، ولا يعرف أسبابها وبواعثها إلا من أسرهم العشق ، وملكهم سلطان الغرام . ولقد وفق الشاعر في الربط بين هذه الأوزان وبين المعاني التي يقصدها ، فكان شعره هذا مبينا لهيامه ، ومبرزا لآلامه ، فهو عاشق محروم ، لا يجد سبيلا إلى إطفاء لوعة حبه إلا بالخضوع الطويل ، والبكاء السريع ، والخد البسيط ، والشجو المديد ، ولولا جمعه لهذه الصفات في نسق واحد لما كانت التورية واضحة .

ومن ذلك ما ورى به لسان الدين ابن الخطيب كذلك من مصطلحات علم القوافي وهو قوله :

سرى يسر إلي أنك تاركي نفسي الفدا للطفك المتـدارك
يا مالكي ولي الفخار بأنني لك في الهوى ملك وأنك مالك[٥٣]

---

[٥٢] ديوان يوسف الثالث ، ص٤٢ ، ص٨٧ . وديوان عبد الكريم البسطي ، ص٣٦٠.
[٥٣] الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج٣ / ص١٩٠.

فالتورية هنا بالمتدارك ، وهو ضرب من القافية يجتمع منها متحركان بعدهما ساكن ، ولم يقصدها الشاعر، وإنما قصد معناهما اللغوي .

وقال ابن جبير في التورية العروضية :

لقد كمل الود بيننا ودمنا على فرح شامل

فإن دخل القطع في وصلنا فقد يدخل القطع في الكامل[٥٤]

يوضح هنا أن الود قد كمُل بينه وبين محبوبه حتى صارا في فرح دائم ، ثم يستدرج قائلا : إذا دخلت القطيعة بينهما ، فإن القطع قد يدخل بحر الكامل . فالتورية هنا في كلمة (القطع) ، والمقصود بالمعنى القريب هو قطع الوصال . أما البعيد هو علة القطع المختصة بعلم العروض فهو أيضا يوري بالبحور الشعرية .

وفي معرض الغزل يصف ابن صفوان محبوبه بالكمال ، ويصف شوقه وصلته بالمحبوب بالأسباب ، وهجر المحبوب بالقطع ، وواضح أن المعاني البعيدة هي بحر الكامل وبحر الوافر والبسيط ، ومن العلل القطع ، ومن مكونات البحور الأسباب وذلك في قوله :

يا كاملا شوقي إليه وافر وبسيط خدي في هواه عزيز

عاملت أسبابي لديك فقطعتها والقطع في الأسباب ليس يجوز[٥٥]

وطبيعي أن تكون العلوم الشرعية حاضرة لما كان لها من شهرة واسعة في بلاد الأندلس .

---

[٥٤] المصدر نفسه ، ج٣/ ص٣٠٣.

[٥٥] الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج١ / ص١٠٠.

ومن ذلك علم الفقه اذ يقول ابن الحاج البانيقي :

يلومونني بعدَ العِذار على الهوى ومثليَ في وجدي لهُ لا يُفنَّد

يقولون أمسِكْ عنهُ قد ذَهَب الصبا وكيفَ أرى الإمساكَ والخيطُ أسودُ[٥٦]

فهو يخبرنا عن عذّاله الذين وجهوا إليه اللوم على هواه وعشقه ، ويرد بأنه عاشق ومثله لا ينفك عن هوى المحبوب موصولا ومستمسكا ، ولكن اللائمين ينصحونه بالإمساك والتوقف عن هذا الحب الذي أذهب شبابه ، فيرد عليهم بأن الوقت لم يحن بعد ، فالتورية هنا بجملة (كيف يرى الإمساك والخيط أسود) ، فالمعنى قريب بأنه يستنكر البعد عن المحبوب اذ ما زال متعلقا به ، والمعنى البعيد المقصود الإمساك عن الطعام بعد أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

ومن العلوم ايضا علم الحديث كقول لسان الدين بن الخطيب :

مَضْجَعي فيكَ عنْ قُتادَةٍ يرْوي ورَوى عنْ أبي الزِّنادِ فؤادي وكَذا النوْمُ

شاعِرٌ فيكَ أمْستى منْ دُموعي يَهيمُ في كلِّ وادي[٥٧]

فالتورية في كلمة (قتادة) ، والمعنى القريب هو الشوك ، والقرينة (مضجعه) الذي أقضّه ولم يستطع النوم ، والمعنى البعيد هو (أبو قتادة) عالم الحديث المشهور[٥٨] ، وفي الشطر الثاني كلمة (الزناد) اذ المعنى

---

[٥٦] المصدر نفسه ، ج٢ / ص٩٣.

[٥٧] المصدر نفسه ، ج٤/ ص٤٢٥.

[٥٨] أبو قَتَادَة الأنصاري السلمي (ع) فارس رسول الله(ﷺ) شهد أحدا ، والحديبية . وله عدة أحاديث . اسمه الحارث بن ربعي ، على الصحيح ، وقيل : اسمه : النعمان ، وقيل : عمرو ، ينظر : فوات الوفيات ، ج٣/ص٢٣٣.

القريب النار واللهيب ، والقرينة كلمة (فؤاده) ، أي أن فؤاده قد احترق من لهيب الأشواق ونيرانها ،

أما المعنى البعيد المقصود فهو عالم الحديث المشهور (أبو الزناد)[٥٩].

ومن ذلك ما ورى به عبد الكريم البسطي من مصطلحات علوم الحديث والفقه وهو قوله :

ومذهبي أنني بالجهل أعذرُه والعذرُ بالجهل مطروحٌ ومجتنَبُ[٦٠]

فهو قد استعمل لفظة (مطروح) ولفظة (مجتنب) استعمالا يؤدي معنى واضحا يتعلق بوصف هيامه، وبتحديد أسباب تعلقه بمحبوبه؛ لكن اجتماعهما معا دل على أنه يريد التورية بهذين اللفظين .

ومن العلوم التي لجأ شعراء الأندلس اليها أيضا علم الهندسة فالشاعر يوري بعلم الهندسة في معرض الغزل ، كقول أبي الوليد بن أحمد الوقشي :

قد بيّنت فيه الطبيعة أنّها بدقيق أعمال المهندس ماهره

عنيت بمبسمه فخطّت فوقه بالمسك خطّا من محيط الدائره[٦١]

---

[٥٩] أَبُو الزِّنَاد عبد الله بن ذكْوَان أَبُو الزِّنَاد الْفَقِيه الْمدنِي مولى قُرَيْش يُقَال إِنَّه ابْن أخي أبي لؤلؤة قَاتل عمر بن الْخطاب سمع أنسا وَأَبَا أُمَامَة ابْن سهل وَعبد الله بن جَعْفَر بن أبي طَالب وَسَعِيد بن الْمسيب والأعرج فَأَكْثر عَنهُ وروى عَنهُ مَالك وَكَانَ أحد الْأَئِمَّة الْأَعْلَام ، ينظر : الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي (المتوفى : ٧٦٤هـ) ، تح : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث – بيروت ، ٢٠٠٠ ، ج١٧/ ص٨٦

[٦٠] ديوان عبد الكريم البسطي، ص١١٢.

[٦١] نفح الطيب ، ج٢/٣٨٤.

فالشاعر يقرر أن الطبيعة قد جملّت وزينّت محبوبه ببدائع النقش والهندسة حتى أنها قد عنيت بمبسم محبوبه ، فخطت فوقه بالمسك قوسا ، وواضح أنه غزل بالمذكر ، وفهمنا ذلك من خط المسك ، ويقصد به الشارب الخفيف فوق مبسمه . أما التورية فهي قوس من محيط الدائرة ، فالمعنى القريب الشارب الخفيف ، والمعنى البعيد الهندسية.

ومن التورية بعلم الحساب قول لسان الدين بن الخطيب مداعبا بعض المقرئين للعدد وهو بديع :

يا ناصبا علم الحساب حبالـه ... لقناص ظبي ساحر الألباب

إن كنت ترجو بالحساب وصاله ... فالبدر يرزقنا بغير حساب[٦٢]

فهو ينادي صياد ماهر ينصب شراكه بدقة ونظام ، وعلى قوانين الحساب والأعداد ليقنص ظبيا ساحر الألباب ، وهو استعارة تصريحية عن المحبوبة بروعة جمالها الذي يأخذ بالألباب ، والصياد هنا هو العاشق الذي يريد الإيقاع بالمحبوبة في شرك الهوى ، ثم يتوجه إليه الشاعر قائلا إن كنت تستطيع وصال المحبوبة والتواصل معها بحساباتك ، فالله يرزقنا بغير حساب ، وكلمة (حساب) هنا فيها تورية اذ المعنى القريب علم الحساب وقوانينه ونواتجه ، والمعنى البعيد أفضال الله ونعمه الوفيرة التي لا يحصيها عدٌّ ولا حساب .

ويقول عبد الكريم البسطي موريا بعلوم الحساب :

ففي الجمع دهرا لم أزل من حقوقهم ... وهم دون ذنبٍ من حقوقيَ في الطرحِ[٦٣]

---

[٦٢] الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج٣ / ص٣٠٣.

[٦٣] ديوان عبد الكريم البسطي ، ص٢٨٠.

رابعا : التورية بذكر الأعلام من الفقهاء والقراء والأدباء :

من أمثلة هذا القسم قول ابن خاتمة :

فَلَوَ اَنَّني ذُو مَذْهبٍ لِشَفاعةٍ نادَيْتُه يا مالكي يا شافعي[٦٤]

التورية واضحة ، ولا يفرق مستعملو التورية في آخر كل مصراع بين ياء النسبة وياء المتكلم ما دام النطق بهما شعرا لا يتغير.

وقول ابي حيان الاندلسي :

يَروقُـــك لَفظا أَو يَروعُك مَنظَـــرا فَأَعجِب بِهِ مِن رائِقٍ وَهوَ رائِعُ
غَدا مالِكي في الحُبِّ مَن هُوَ شافِعي فللّهِ مِنهُ مالكٌ ليَ شـــافِعُ[٦٥]

إن البيتين حسب ما يظهر من سياق وضعهما يعبران عن لوعة الشاعر وعن حرمانه ، وهجران حبيبه، فهو يتمنى لو زالت الحواجز بينه وبين من يحب ، ويرجو أن تصفو علاقته به ، وأن يجد شفيعا لديه يزيل عنه أسباب الصدود ، ويمحو عنه شقاء الفراق ، ولكن لا شفيع له إلا حبه ، وهذا الحبيب لا يقبل شفيعا كيفما كانت حجته ، ولا يستجيب لتضرع راغب مهما حصل ، فهو مالك لمهجته ، ومن المحقق أن مذهب مالك لا تستقيم لديه حجة شافعي ، إن المعنى واضح بين ، ولكن الشاعر أراد أن يستعمل

---

[٦٤] ديوان ابن خاتمة ، ديوان ابن خاتمة الأنصاري ، محمد رضوان الداية ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٢، ص١٩٨. وينظر : الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج١/ ص١٠٩.

[٦٥] ديوان ابو حيان الاندلسي ، تح : الدكتور : احمد مطلوب و الدكتورة : خديجة الحديثي ، ط١ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٩. ص٢٧٦.

أسلوب التورية ، وذلك باستعمال عناصر أصولية بنيت عليها بعض الأحكام عند مالك والشافعي رضي الله عنهما، فلكل منهما منحى اجتهاد تقرر القواعد على أساسه ، وتتخذ الأحكام على وفق منهجه .

وقد استغل الأدباء هذه المعارضات وأخضعوها لخيالهم ، وجعلوها ميدانا لأدبهم ، ومحسنا لأسلوبهم ، وقد اتضح ذلك في البيتين السابقين اللذين أظهر فيهما ابو حيان الاندلسي براعته في باب التورية ، وقد استعمل الاسلوب نفسه في أبيات أخرى يقول :

أَعَرتُكَ تَسهيلَ* الفَوائِدِ بُرهَةً وَأَصبَحت في التَرشيحِ ظُلما مُنازِعي

إذا شافِعي فيهِ غَدا لي مانِعي فَأَنى بِإدراكي لما عِند شافِعِ [٦٦]

فهو هنا يبحث عن بعض الحلول التي يعجز بعض الناس عن الوصول إليها وفق مذهبهم، فيلتجئون إلى مذهب آخر عساهم أن يجدوا وجها يبرر لهم ما يريدون الوصول إليه .

ولم يقتصر في هذه الأبيات على التورية بالنسبة لمالك والشافعي، وإنما أضاف إلى ذلك تورية أخرى بعاصم ونافع، وهما من أئمة القراءات السبع.ابن الحاج النميري يقول :

عَنْ نَافِعٍ أَسْنِدْ حَدِيثَ أَحِبَّتِي يَا مَالِكا رِقِّي بِحُسْنِ صَنَائِعِ

فَأَجَلُّ إِسْنَادٍ وَخَيْرُ رِوَايَةٍ عِنْدِي رِوَايَةُ مَالِكٍ عَنْ نَافِعِ[٦٧]

---

[٦٦] ديوان ابو حيان الاندلسي ، ص٢٧١، * التسهيل : هو تسهيل ابن مالك .

[٦٧] نفح الطيب ، ج٧ / ص١١٦.

استعمل الشاعر التورية للدلالة على صدق مشاعره فأشار بالمعنى القريب عن رواية مالك عن نافع للدلالة على الصدق اما المعنى البعيد هو من اجل بيان صدق اقواله ومشاعره .

ومن التوريات على لسان الشعراء باستعمال اسماء الرواة ، يقول لسان الدين بن الخطيب :

قَالَ لِي وَالدَّمُوعُ تَنْهَلُّ سُحْبـــــا ... فِي عِرَاصٍ مِنَ الْخُدُودِ مُحُولِ

بِكَ مَا بِي فَقُلْتُ مَوْلَايَ عَافَـــا ... كَ الْمُعَافِي مِنْ عَبْرَتِي وَنُحُولِي

أَنَا جَفْنِي الْقَرِيحُ يَرْوِي عَنِ الأَعْمَشِ ... وَالْجَفْنُ مِنْكَ عَنْ مَكْحُولِ[٦٨]

وهنا قصيدة قالها والدموع تنهال سحبا من عينيه وقد ورى بها عن القريح الذي يروي عن الاعمش والجفن منه مكحول وهو مااراد به الشاعر بالمعنى البعيد .

ولم يكتف الشعراء في التورية بهؤلاء الأعلام ذلك أنه كان كثير التنويع على حسب الاختصاصات المختلفة.

ويقول لسان الدين ابن الخطيب :

فَلَوْ زَمَنُ ابْنِ الْجَهْمِ أَشْرَقَ بِشْرُهُ ... لَمَا سُرَّ بِ ابْنِ الْجَهْمِ وَالِدُهُ الْجَهْمُ

---

[٦٨] الاحاطة في اخبار غرناطة ،ج٤/ ص٤٩٨ . (الْأَعْمَش) سُلَيْمَان بن مهْرَان الْأَعْمَش الإِمَام أَبُو محمّد الْأَسدي الْكَاهِلِي ، الإمام شيخ الإسلام ، شيخ المقرئين والمحدثين ، مولاهم الكوفي الحافظ . أصله من نواحي الري. فقيل ولد بقرية أمه من أعمال طبرستان في سنة إحدى وستين وقدموا به إلى الكوفة طفلا، وقيل : حملا .ينظر : الوافي بالوفيات ، ج١٥/ ص٢٦١.

وَلَوْ نُشِرَ الطَّائِي يَوْمَ اجْتِلاَئِهَـا لَجَلَّلَهُ مِنْ أَجْـلِ إِيثَارِهَا غَـــمُ[٦٩]

فهو هنا يستحسن لثغة في نطق من يهواه ويستلذها، كما يستحسن منه إمالة الراء ، وهاتان الصفتان تتعلق بالأصوات ، لكن الشاعر استغلهما استغلالا أدبيا ، اذ استحضر أبا تمام ، وهو حبيب الطائي المنسوب إلى قبيلة طيء على غير قياس إيهاما بأنه عند ذكر حبيبه غير الطائي ينصرف المعنى إلى القبيلة ، في حين أنه يقصد كونه لا يحسن النطق بالطاء ، وكذلك الأمر يتعلق بإمالة الراء ، فإن الإمالة تتصرف إلى هذا الحرف الذي يميله حبيبه ، لكنه لا يقصد ذلك ، وإنما يقصد إمالة الناظرين إليه ، نظرا لما فيه من جانبية الحسن والجمال[٧٠].

التورية في الموشحات :

هذا في مجال الشعر أما التوشيح فقد نال حظه من التورية في عهد بني الأحمر ، فمن ذلك قول ابن خاتمة :

أما تَرى اللَّيْلَ حائِرْ قد تاهَ خوفَ افْتِضاحِ
وطالِعُ الشُّهبِ غائِرْ والنَّسْرُ خَفْقُ الجَناحِ
وعَنْبَرُ الدَّجْنِ عاطِرْ تُذْكِيهِ نارُ الصَّباحِ[٧١]

---

[٦٩] ديوان لسان الدين بن الخطيب ، تح : محمد مفتاح ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، م٢/ ص٥٤٦ . وديوان ابن فركون، ص١٢٥.

[٧٠] ينظر : رائق التحلية في فائق التورية ، ابو جعفر ابن احمد زرقاله ، تح : محمد رضوان الداية، ط١، دار الحكمة للطباعة والنشر ، دمشق ، (د.ت). ص٣٧ .

[٧١] ديوان الموشحات الاندلسية ، سيد غازي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ،١٩٧٩، ج٢/٤٥٠ . ذكر ان ابن زرقالة احد تلاميذ ابن خاتمة جمع توريات ابن خاتمة الشعرية في كتاب (رائق التحلية وفائق التورية).

جـاءت التوريـة فـي لفظـة (النسـر) ومعناهـا القريـب الطـائر المعروف ، ومعناها البعيد مجموعة من النجوم ، فورى وأراد النجوم ، وأنها قاربت المغيب ، وخفق الجناح ترشيح لها .

ومن التوريات الجميلة قول لسان الدين بن الخطيب :

ورَوَى النّعْمانْ عنْ ماءِ السّما كَيْفَ يزْوي مالِكٌ عنْ أنسِ

فَكَساهُ الحُسْنُ ثوْبـا مُعْلَما يزْدَهي منْهُ بأبْهَى ملْبَسِ[٧٢]

فالتوريـة جـاءت فـي لفظـة (روى) ولهـا معنيـان أحـدهما مـن الروايـة والثـاني من السقي ، و(النعمان) نبات يعرف (بشقائق النعمان) أي انه ارتوى من الندى ، والناظر الى النص من أول وهله يظن ان الروايـة من (النعمان بن المنذر) عن أمه (ماء السماء) ، وهي في الحقيقة توريـة .

ويوري ابن زمرك بلفظة (المشتري) التي لها معنيان الأول الذي يريد (الشراء) ، والثـاني الكوكـب المشـهور مـن كواكـب المجموعـة ، يقـول ابـن زمرك :

فَأَيْقِظِ النُّدْمَـانْ يُبْصِرْنَ مَا لَمْ يُبْصَـرِ

جَوَاهِرُ الشُّهبانْ قد عرضَتْ للمشتري[٧٣]

---

[٧٢] المصدر نفسه ، ٢ /٤٨٥ .

[٧٣] ديوان الموشحات الاندلسية ، ٥١١/٢ . وهناك توريات أخرى لم أوردها رغبةً في الاختصار ، كما ان هناك بعض المحسنات البديعة في العصر كالمدح بما يشبه الذم وغيرها ، ينظر : ديوان الموشحات الأندلسية ٤٦١/٢ .

فالشاعر قد وزى في نصه ، فالمعنى الأول السطحي أن الجواهر قد عرضت (للمشتري) ليشتريها ، والذي أراده الوشاح أن الشهب اللامعة في الليل قد اقتربت من المشتري الكوكب وعرضت له .

ويصف ابن زمرك غرناطة حتى وصل إلى وصف نزول المطر ، متخذًا من الصورة الهندسية أداة لبيان معانيه ، قائلا :

والبرقُ والجَوُّ مستطيلُ يَلْعَبُ بالصارم الصَّقيلْ[٧٤]

وأشار ابن زمرك إلى ظاهرة تنقل الظل من مكان إلى آخر ، مستدلا بها على الانتباه من الغفلة ، يقول :

واللهِ ما الكونُ بما قَدْ حَوَى إلاَ ظِلالٌ تُوهمُ الغافلا

وعادَةُ الظلِّ إذا ما استوى تُبصِرُهُ مِنتقلا زائلا [٧٥]

فالشاعر يريد أن يشير إلى الإنسان إذا استوى عمره فلابد له من القرب من النهاية فهو في تناقص مستمر منذ ولادته ؛ كذلك الظل إذا استوى فانه يتغير بالنقص حتى يزول ، ليس غريبًا على ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك، أن يذكرا في شعرهما مصطلحات العلوم لمعرفتهما بها ، وطول باعهما فيها ، ووجود المصطلحات العلمية دليل على ثقافة الشاعر وحضارة المجتمع ، فوجودها في شعره وموشحاته دليل معرفته بها .

---

[٧٤] المصدر نفسه ، ٢/٥٠٤.

[٧٥] المصدر نفسه ، ج ٢/٥٤٨.

من المصطلحات العلمية المصطلحات الفلكية [٧٦] ، يقول ابن خاتمة :

وطالِعُ الشُّهبِ غائِرْ والنَّسْرُ خَفْقُ الجَنـاحِ
وعَنْبَرُ الدَّجْنِ عاطِرْ تُذْكِيهِ نـارُ الصَّبـاحِ
ومالَ سِرْبُ الثُّرَيـا إذْ أنارَ للنَّهارْ طليعةَ الفَجْـرِ
والأرضُ تعبَقُ رَيّـا والسَّحابُ في انْسِكابْ عَلى رُبا الزَّهرِ [٧٧]

تحدث ابن خاتمة عن (الشهب ، والثريا) ، ويتحدث مرة أخرى عن الأبراج حينما جعل (الشمس) تحل (بالحمل) قائلا :

هذه الشَّمسُ حَلَّتْ بالحَمَلْ ومُحَيّا الزَّمانِ الحالي [٧٨]

وهذا ما نجده كذلك عند ابن الخطيب مشابها لابن خاتمة عندما كان يتحدث عن الخمر ، قائلا :

يا مُرادِي ومُنْتَهى أمَلي
هاتِها عسْجَدِيّةَ الحُلَلِ
حلّتِ الشّمْسُ منزِلَ الحَمَلِ [٧٩]

من كثر جمال المحبوب ورى الشاعر بالشمس مكان الحمل ليعكس لنا صورة المحبوب التي احس بها الشاعر اتجاه محبوبته .

---

[٧٦] لغة الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، جمال نجم العبيدي ، عمان ، ٢٠٠٣، ص١٣٥.

[٧٧] ديوان الموشحات الاندلسية ، ج ٢/٤٥٠ .

[٧٨] المصدر نفسه ،ج ٢/٤٥٩، ٤٧٩ .

[٧٩] المصدر نفسه ،ج ٢/٤٩٠. ج ٢/٤٢٧.

الخاتمـــة :

الملاحظ ان شعراء عهد بني الأحمر قد أولوا المحسنات البديعية منها التورية أهمية كبيرة في نتاجهم الشعري وليس غريبا عليهم ، فقد طرقوها في قصـائدهم ، وقـد كـان هـذا الاهتمـام بعيـدا عـن التكلـف والتصـنع ، مما جعلها في اشعارهم رائعة مستحسنة غير مبتذلة ولا طاغية على حساب المعنى .

ونلحظ أن معظم التورية بالعلوم كان في معرض الغزل ، ولعله كان أوسع أغراض الشعر في البيئة الأندلسية ذات الطبيعة الجميلة ، وعلى كل حال، فإن هذه المنتخبات الشعرية يعد أكثرها من روائع الشعر العربي، إلا أن إيحاءاتها تتوقف على الإلمام بالثقافة الأدبية والعلمية ، وإلا فقدت تأثيرها المراد منها، وهذا هو السبب في كون التورية ، إذا تكلفها الشعراء أو استعملوها في غير إطارها المناسب لها، فإنها لا تبقى داخلة في مجال المحسنات ، وإنما تصير عنصرا ينبغي تجنبه من عناصر الإبهام والإيهام.

المصادر :

❖ القران الكريم

❖ اتجاهات نقد الشعر في الاندلس ، مقداد رحيم ،دار الثقافة بيروت ط١ ، ١٩٧٣.

❖ الإحاطة في اخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤٢٤ هـ .

❖ الادب في بلاد الشام ، عمر موسى باشا ، المكتبة العباسية ، دمشق ، ٢٠٠٨.

❖ البديع في نقد الشعر ، اسامة بن منقذ ، تح : الدكتور أحمد أحمد بدوي ، مطبعة الحلبي للنشر والتوزيع ، القاهرة ،١٩٦٠.

❖ البلاغة تطور وتاريخ ، شوقي ضيف ، ط٦ ، دار المعارف ، القاهرة .

❖ تاريخ النقد الادبي عند العرب ، احسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان ، ط٢ ، ١٩٧٨.

❖ تاريخ النقد الادبي في الاندلس ، محمد رضوان الداية ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ،١٩٩٣.

❖ الحركة الشعرية زمن المماليك ، محمد مصطفى هدارة ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ،١٩٨٦.

❖ خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي ، تح : عصام شقيو ، دار ومكتبة الهلال- بيروت ، دار البحار، ٢٠٠٤م .

❖ ديوان ابن خاتمة ، ديوان ابن خاتمة الأنصاري ، محمد رضوان الداية ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٢.

❖ ديوان ابن فركون ، تح : محمد بن شريفة ، ط١، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧.

❖ ديوان أبي حيان ، تح : الدكتور : احمد مطلوب و الدكتورة : خديجة الحديثي ، ط١ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٩.

❖ ديوان الموشحات الاندلسية ، سيد غازي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ،١٩٧٩.

❖ ديوان عبد الكريم البسطي القيسي ، تح : جمعة شيخة٠عبد الهادي الطرابلسي ، المؤسسة الوطنية للترجمة ، بيت الحكمة ، تونس ، ١٩٨٨م .

❖ ديوان لسان الدين بن الخطيب ، تح : محمد مفتاح ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء .

❖ ديوان ملك غرناطة ، يوسف الثالث ، تح : عبدالله كنون ، ط٢، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

❖ رائق التحلية في فائق التورية ، ابو جعفر ابن احمد زرقاله ، تح : محمد رضوان الداية ، ط١ ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، دمشق ،(د.ت).

❖ السحر والشعر ، لابن الخطيب ، تح : الدكتور خالد الجبر والدكتور عاطف كنعان ، دار جرير للنشر ،عمان .

❖ شعر ابن جابر الاندلسي ، الدكتور احمد فوزي الهيب ، دار سعد الدين للطباعة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٧.

❖ طراز الحلة وشفاء الغلة في شرح الحله السيراء في مدح خير الورى، ابو جعفر الرعيني، تح : الدكتور رجاء السيد الجوهري ،مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية .

❖ فوات الوفيات ، محمد بن شاكر الكتبي ، تح : إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ط١، ١٩٧٣ .

❖ الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ،ابن الخطيب ، تح : إحسان عباس . دار الثقافة بيروت ،١٩٨٣.

❖ لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣ ، ١٤١٤هـ.

❖ لغة الشعر في القرنين الثاني والثالث الهجريين ،جمال نجم العبيدي ،عمان ، ٢٠٠٣.

❖ مختارات علي بن عزيم الغرناطي ، تح : وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٩٣ م .

❖ المدائح النبوية ، زكي مبارك ، مطبعة بابي الحلبي ، مصر ،د.ت .

❖ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه ، كامل المهندس ، مكتبة لبنان .

❖ نثير الجمان ، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر الغرناطي الأندلسي ، تح : الدكتور محمد رضوان الداية ، الناشر: مؤسسة الرسالة ، ط٢، ١٩٨٧.

❖ نثير فرائد الجمان ، اسماعيل بن الاحمر . المقدمة ؛ تح : محمد رضوان الداية ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت . لبنان، ١٩٦٧ .

❖ نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، المقري التلمساني ، تح : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت – لبنان.

❖ نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، لأحمد بابا التنبكتي ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس .

❖ الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي (المتوفى : ٧٦٤هـ) ، تح : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث – بيروت ، ٢٠٠٠ .

❖ ودراسات فنية في الادب العربي ، عبد الكريم اليافي ، مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان _ بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦.

❖ ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها الدكتور احمد مطلوب ،مكتبة لبنان ناشرون ، لبنان ، ٢٠٠٧ .